ملخص

أثر الحرمان العاطفي على النمو المعرفي عند الأطفال

د. حسن الموسوي
قسم علم النفس
كلية التربية الأساسية - الكويت

تهدف هذه الدراسة إلى تبيان أثر الحرمان العاطفي على النمو المعرفي عند الأطفال حسب نظرية العالم السويسري «جان بياجيه».

تتناول الدراسة نظرية «بياجيه» من حيث التلاؤم والاستيعاب والتكيف والتوازن ودور السكيما في نمو المعرفية البشرية، كذلك التوازن بين الاستيعاب والتلاؤم ومدى أهمية هاتين العمليتين في النمو المعرفي.

كذلك تتناول الخصائص الذهنية لأطفال ما قبل السبع سنوات ومنها الأنوية أو التمركز حول الذات Egocentrism، وما ينتج عنها في إحيائية واصطناعية وطريقة إدراك الطفل للعالم الخارجي استناداً إلى دراسات «بياجيه» في كتابه «تصور العالم عند الطفل» (La repésentation du monde chg l'enfant).

وتستند الدراسة إلى الدراسات السابقة التي تناولت أثر الحرمان العاطفي على النمو الذهني مثل دراسات «بولبي» وغيره، وأثر وجود الطفل في مؤسسات رعائية على تطوره الذهني.

وتعود الدراسة إلى دراسات ميدانية حول أثر الحرمان العاطفي على النمو المعرفي منها واحدة في لبنان تبين أن الأطفال الذين يعيشون في مؤسسات رعائية يعانون من تأخر دراسي يتراوح بين السنتين والثلاث سنوات.

ثم تخلص الدراسة إلى نتائج منها أن الحرمان العاطفي لا يؤثر فقط على النمو الذهني أو الذكاء ولكنه يؤثر أيضاً على السلوك الاجتماعي، فمعظم الأحداث المنحرفين يعانون من انتمائهم إلى أسر مفككة أو أنهم عاشوا بعيداً عن أسرهم وعانوا من الحرمان العاطفي. كذلك معظم المجرمين في العالم بينت الدراسات إلى أنهم لم يعيشوا في أسر سوية.

أولاً: علم تكوين المعرفة

لقد اهتم بياجيه بدراسة كيفية تكوين المفاهيم عند الأطفال، ذلك أنه وراء كل بالغ كما يقول «فرون» من الحضارة والعلم من أجل فهم كيفية تكوين الفكر البشري، مثلما كان يحلم «بياجيه»، كان عليه أن يدرس مراحل تطور الإنسان في ما قبل التاريخ حتى الآن، ولكن هذا مستحيل من الوجهة العلمية، وقد كان لعلم تكوين المعرفة الذي وضعه هذا العالم انعكاس على التربية وعلم نفس الطفل والتعلم.

والمهم في علم تكوين المعرفة، أنه وضع مراحل للنمو العقلي وهذه المراحل واحدة في كل المجتمعات وعند جميع الأفراد(1).

فقد كان «بياجيه» يقوم بتجاربه، بالعفوية نفسها التي يمارس بها الإنسان العادي حياته اليومية، كل مشاهدة كانت تعني له ملاحظة علمية، وكل حديث له مع طفلته أو مع أحد زملائه، كان يستثير عنده فضول العالم وتساؤلات المكتشف. وهكذا توحدت الحياة والمعرفة عنده، حتى بتنا لا نستطيع أن نميز، والأرجح أنه هو أيضاً لم يكن يستطيع أن يميز، أين يكمن الحد الفاصل بين الحياة اليومية وبين التجربة العلمية، إذ إنه كان يمارس تفكيره وعمله العلمي على كل ما يقوم به وذلك بشكل منتظم(2).

لقد مكث «بياجيه» فترة طويلة في باريس في مختبر بينة - سيمون حيث قام بأبحاث نظرية على اختبارات الذكاء ودراسة تكوينية على الفئات والعلاقات(3).

وتتنوع أبحاث «بياجيه» فيدرس مشكلات علم تكوين المعرفة.

ولا بد من أن نذكر أن علم تكوين المعرفة فكرة جديدة في علم النفس أدخلها «بياجيه» لدراسة تطور المعرفة والمنطق عند الطفل، فالمعرفة أو الذكاء يمر بمراحل نمو متدرجة، وفي كل مرحلة انبناء معين، وهذا يعني أن الذكاء يتطور عند الطفل، وهو ليس قائماً مسبقاً في الانبناءات الداخلية أو البيولوجية عند الإنسان إنه نتيجة انبناء متطور مستمر.

إن المنهجية التي اتبعها «بياجيه» في دراساته هي «الطريقة العيادية» (Méthod clinique) التي تعتمد على الملاحظة والمقابلة بحيث تراعى فيها العفوية في سلوك الطفل وتصرفاته.

إن ميزة علم تكوين المعرفة هي التفتيش لإطلاق جذور المعارف المختلفة والمتنوعة من أشكالها البسيطة، وبالتالي يتبعها تطور هذه المعارف لمستوى تفكير علمي ضمنياً فيما بعد، بناء على ذلك إن معضلة علم تكوين المعرفة الوراثي هي تكاثر المعارف عند الأطفال أكثر منها عند الراشدين، فهي تحول المعارف الأقل جودة والأكثر فقراً إلى معارف غنية ونظرية.

الذكاء بالنسبة لـ «بياجيه» هو شكل من أشكال التكيف المتقدم وهو يتطور بواسطة عمليتي الاستيعاب (Assimilation) والتلاؤم (Accommodation) والذكاء لا يظهر فجأة فهو عملية توازن مستمرة لإدخال الجديد في إطار البنيات العقلية الموجودة سابقاً، وإيجاد بنيات جديدة أكثر تكاملاً[4].

ولكي نفهم سياق الأنظمة الذهنية وتكيفها كما تناولها «بياجيه» يجب سبر غور أربع مفاهيم هي:

- سكيما (تصميمة) (Schèma).
- الاستيعاب (Assimilation).
- التلاؤم (Accommodation).
- التوازن (Equilibration).

وقد استخدمت هذه المفاهيم لشرح كيفية وسببية ظهور هذا النمو المعرفي.

سكيما (Schèma):

يعتقد «بياجيه» أن للعقل بنيات مثل الجسم. السكيما هي البنيات الذهنية التي يتكيف من خلالها الأشخاص ذهنياً وينظمون محيطهم، إن هذه السكيما تستخدم لتعالج وتطابق المؤثرات المطروحة. الطفل منذ ولادته يمتلك بعضاً من هذه السكيما وفي سياق عملية النمو تصبح السكيما هذه تدريجياً معممة ومتميزة وقريبة جداً لذهنية الراشد[5]. يحتوي عقل الطفل عند الولادة على بعض البطاقات (Cards of Files) الكبيرة كتب عليها كل شيء، أما خلال عملية النمو تظهر ضرورة وجود بطاقات أخرى لتحتوي التصنيفات المتغيرة.

للتوضيح، نعطي مثلاً يمشي طفل مع والده في القرية، ينظر والده إلى الحقل فيرى ما يسمى للراشد «بقرة» فيقول لابنه: انظر هذا الحيوان. أتعرف ما هو؟ وينظر الطفل إلى الحقل فيشاهد البقرة، ولكن بعد فترة من التفكير، يقول الطفل: هذا كلب، لنفترض أن الطفل أعطى الإجابة الصحيحة. بإمكاننا أن نستنتج ما يلي: أن الطفل

رأى في الحقل بقرة، ولكنه لم يشاهد بقرة في السابق (بعد تعرضه لمؤثرات جديدة)، حاول أن يضع هذه المؤثرات في مرجع لبطاقات في ملفه. لقد وجد الطفل أن المؤثر «البقرة» هي تقريباً كلب، وهكذا تعرّف على هذا الشيء «بكلب».

عندما يصطدم الطفل بمؤثر ما، فإنه يحاول أن يقابله مع إحدى «السكيما» الموجودة سابقاً.

إن السكيما تكون انعكاسية بطبيعتها منذ الولادة، بالعودة لبعض انعكاسات الأنشطة الحركية البسيطة مثل المص والمسك، خلال عملية النمو تصبح هذه السكيما متميزة وأقل محسوسية وأكثر تنوعاً والشبكة المؤلفة تصبح تدريجياً أكثر تعقيداً.

من الخطأ أن نفكر أن السكيما تتغير إن في مثل الطفل الذي سيسمي البقرة كلباً طيلة حياته. من الجلي أن هذا لا يمكن حدوثه، فعندما يصبح الطفل قادراً على تعميم المؤثرات، تصبح بالتالي أكثر دقة.

إن سكيما الراشد الذهنية مستمدة من تلك السكيما الحسية - الحركية، والعمليات المسؤولة عن هذا التغير هي الاستيعاب والتلاؤم.

الاستيعاب (Assimilation):

الاستيعاب هو عملية ذهنية يدمج من خلالها الشخص المحتوى الإدراكي - الحسي - الحركي - المفاهيمي للأشياء مع سكيما أو نماذج من تصرفات موجودة سابقاً.

إذاً، يمكن أن نرى الاستيعاب كعملية ذهنية لاستبدال مؤثرات أحداث جديدة بأخرى موجودة سابقاً.

نظرياً، الاستيعاب لا يؤدي لتغيير السكيما، إنما يؤثر على تطورها وهو جزء من نموها، نحن نعلم أن السكيما ليست نفسها عند الراشد وعند الطفل بل هي مختلفة، يمكننا أن نشبه هذه السكيما «ببالون» فالاستيعاب هو بوضع مزيد من الهواء في داخله، إن هذا البالون يكبر بالحجم ولكن لا يتغير شكله.

الاستيعاب هو جزء من تكيف وتنظيم الإنسان فكرياً مع محيطه، إن عملية الاستيعاب تسمح بتطور هذه المؤثرات لكنها لا تغيرها بالرغم من علمنا بتغير المؤثرات.

يصف «بياجيه» ويعلل تغير السكيما عن طريق العملية الثانية وهي التلاؤم.

التـــلاؤم (Accommodation):

يحاول الطفل وعند مواجهة مؤثرات جديدة أن يدمجها مع أخرى موجودة سابقاً ولكنه يجد ذلك مستحيلاً في كثير من الأحيان. إن عدم إمكانية استيعابها نتج عن عدم وجود سكيما جاهزة لاستبدالها. فماذا يفعل الطفل؟ يمكنه أن يقوم بالأمرين التاليين:

1) ابتكار سكيما جديدة يضع فيها المؤثرات الجديدة.
2) تحوير السكيما لكي تتناسب مع هذه المثيرات.

فكلاهما نوع من أنواع التلاؤم وبالتالي التلاؤم هو ابتكار سكيما جديدة لمثيرات قديمة عندما يأخذ التلاؤم مكانه يحاول الطفل مجدداً استيعاب السكيما، وبما أن الانبناءات قد تغيرت تستوعب المؤثرات بسهولة.

وعندما يكون الطفل صغيراً تكون السكيما شاملة مقارنة مع تلك التي يمتلكها الراشدون فهي أيضاً تفتقر للتمديد والدقة، إن عمليات الاستيعاب والتلاؤم تحول السكيما الفطرية إلى أخرى معقدة كالموجودة عند الراشدين فتتكون على مرّ السنين.

مثلاً، ما نفكر به عموماً للعب للأطفال، في الواقع هو نموذج من عمليتي الاستيعاب والتلاؤم.

فمن جهة أخرى، فإن المجهود الذي يقوم به الطفل لتقليد الآخرين هو في الواقع عملية تلاؤم أكثر منه استيعاب، ففي عملية الاستيعاب يفرض الشخص بنيته الموجودة على المؤثرات المقدمة. فالمؤثرات مجبرة حتى تناسب بنيات الشخص، في التلاؤم العكس هو الصحيح، يجبر الشخص على تغيير سكيماه بأخرى تناسب مؤثراته الجديدة. يصف التلاؤم النمو (التغير النوعي) بينما يصف الاستيعاب (التغير الكمي) وكلاهما يعللان التكيف الفكري والنمو الذهني للبنيات.

التـــوازن Equilibration:

إن عمليات الاستيعاب والتلاؤم ضروريتان للتطور والنمو العقلي، ويساويهما في الأهمية الكمية النسبية للاستيعاب والتلاؤم، لنتصور مثلاً التطور الذهني لشخص يستوعب المؤثرات ولا يلائمها إطلاقاً، سينتهي الأمر بهذا الشخص بعدد قليل من

السكيما الكبيرة جداً وبالتالي فلن يستطيع أن يتحقق من الاختلاف في المسائل، فيرى معظم الأشياء متشابهة فيما بينها. من ناحية أخرى ما هي النتيجة بالنسبة لشخص يلائم ولا يستوعب على الإطلاق سينتهي به الأمر إلى عدد كبير من السكيما المحدودة جداً وقليلة العمومية، فتبدو معظم الأشياء مختلفة له، وهو لا يستطيع أن يرى أوجه التشابه، إن نتيجة إحدى الحالتين ستكون تطور ذهني غير طبيعي، إذاً فالاعتدال بين الاستيعاب والتلاؤم مهم جداً.

يدعو «بياجيه» الاعتدال بين الاستيعاب والتلاؤم «بالتوازن»، فالتوازن تقنية ضرورية لتنظيم وتفعيل نمو الطفل المتفاعل مع محيطه.

التوازن هو حالة من الاعتدال بين الاستيعاب والتلاؤم، أما عدم التوازن فإنه حالة «اللاتوازن» بين الاستيعاب والتلاؤم، إذاً التوازن هو عملية انتقالية في «اللاتوازن» إلى «التوازن»، إنها عملية تنظيم ذاتي أدواتها الاستيعاب والتلاؤم، يسمح التوازن للتجارب الخارجية بالاتحاد مع البنيات الداخلية (السكيما). يمكننا القول إنه عندما يختبر الطفل المؤثرات الجديدة يستوعبها لسكيما موجودة مسبقاً، إذا نجح فإنه يتوصل «للتوازن» المتناسق مع مؤثرات هذه الأحداث في هذه اللحظة بالذات، أما إذا لم يستطع استيعاب المؤثرات سيحاول التلاؤم بتغيير السكيما وابتكار غيرها جديدة بعد إنجاز الاستيعاب للمثيرات المنبثقة، نكون قد توصلنا «للتوازن».

فالاستيعاب والتلاؤم - تنسيق تراكمي، تمييز وبنية مستمرة - تعلل تطور العمليات الذهنية المعرفية، التوازن هو التقنية الداخلية التي تنظم هذه العمليات بالتقنية ذاتها التي نتكيف بيولوجياً مع العالم المحيط بنا، من هنا يعتبر النمو الذهني أو العقلي هو أيضاً عملية «تكيف» (Adaptation).

مراحل النمو (Developmental Stages) :

يرى «بياجيه» أن نمط تطور البنى هو الذي يخلق المراحل، وأن الانتقال من مرحلة إلى أخرى يتم بالتدرج، فكل مرحلة تستند إلى سابقاتها، وتتميز بأنماط مختلفة عن المراحل الأخرى، والمراحل تتداخل فيما بينها.

وقد قسّم «بياجيه» نمو الذكاء إلى أربع مراحل[6]:

المرحلة الأولى: الذكاء الحسي - الحركي: من الولادة حتى السنتين.

المرحلة الثانية: مرحلة العمليات ما قبل الإجرائية في سنتين حتى 6 سنوات وتنقسم إلى مرحلتين فرعيتين:

أ - من سنتين إلى أربع سنوات.

ب - من أربع سنوات إلى 6، 7 سنوات.

المرحلة الثالثة: مرحلة العمليات الحسية 6، 7 سنوات حتى 11 - 12 سنة وتنقسم إلى مستويين.

أ - من 7 إلى 9 سنوات.

ب - من 9 إلى 11، 12 سنة.

المرحلة الرابعة: مرحلة العمليات الشكلية من 11، 12 سنة وما فوق.

الأنوية Egocentrism:

تعتبر المرحلة من 3 إلى 6 سنوات مهمة جداً في تطور النمو العقلي عند الطفل، ويميز «بياجيه» هذه المرحلة بصيغة «الأنوية» فالطفل يفكر ويعمل تبعاً لوجهة نظره الخاصة، وبصورة لاواعية.

إن معارف الطفل حول الأشياء وحول نفسه هي ذاتية، بالإضافة إلى أن لغته وأحكامه وتفكيره لا تظهر العلاقات المنطقية أنها ما قبل المنطقية.

وللتخفيف عن حدة الأنوية تعتبر عملية التطبيع الاجتماعي الطريقة المثلى لذلك، فمن خلال المناقشات بين الأطفال أنفسهم والمشاحنات وتضارب الآراء، يتعلم الطفل شيئاً فشيئاً أن يأخذ آراء الآخرين بعين الاعتبار. إن هاجسه المستمر لبرهنة وجهة نظره لإقناع الآخر يجبره على التفكير بطريقة موضوعية ومن خلال قواعد منطقية.

وقد أثبتت التجربة أن الولد يفكر بطريقة متوسطة بين الطريقة الانطوائية والطريقة المشاركة، إذاً لقد أطلقنا تسمية أنوية على تفكير الطفل رغبة في الدلالة

على أن هذا التفكير يظل انطوائياً في بيئته، لكن مصالحه لا تهدف فقط إلى الإشباع الجسدي أو اللعبي كما هي حال الانطوائية الصرفة، بل هي تسعى مسبقاً إلى التكيف الفكري كما هو حال تفكير الراشد(7).

وللأنوية صفات متعددة هي:

1 - الإحيائية: (Animism) إن الطفل يعطي الحياة والشعور لجميع الأشياء المتحركة والجامدة، فالشيء الخارجي يبدو له مزوداً بالحياة والشعور والقصدية.

2 - الاصطناعية: (Artificialism) إن كل شيء مصنوع، فالجبال صنعها إنسان كبير جبار.

3 - الواقعية: (Réalism) فالطفل يدرك الأشياء عن طريق تأثيرها الظاهر أو نتائجها المحسوسة ولا يربطها بأسبابها الحقيقة(8).

ثانياً: الحرمان العاطفي وأثره على النمو المعرفي

السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو ما مدى تأثير الأم والأب على النمو العقلي عند الطفل، بمعنى آخر هل أن حرمان الطفل من أحد والديه يؤثر على ذكائه؟.

هناك عدة دراسات سلطت الأضواء على أثر العوامل الاجتماعية في تكوين الفرد، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، دراسات خليل أبو رجيلي[9] التي أظهرت أهمية المستوى العلمي للأهل وأثره على التحصيل الدراسي، وبينت أنه كلما ارتفع المستوى العلمي للأهل كلما انخفضت نسب التأخر الدراسي، والعكس صحيح، وأولوية ثقافة الأم على ثقافة الأب في تحصيل أولادهم.

كما نذكر دراسة أخرى لـ هشام بزي[10] يبين فيها العلاقة بين المستوى العلمي للأهل والنجاح المدرسي لأطفالهم، فارتفاع المستوى العلمي لهما يقابله انخفاض في نسب الرسوب، ويظهر ذلك بشكل واضح لدى ارتفاع المستوى العلمي للأمهات، وكذلك تؤكد الدراسة على ارتباط معدل النجاح بالانتماء الاجتماعي للأهل وبعدد الأولاد أيضاً.

أما الدراسات المتعلقة بالأوضاع العاطفية والانفعالية للأطفال، نذكر دراسة عامر عامر[11] حول الخلافات الزوجية، حيث أظهرت الدراسة أن الأسر التي يسودها مناخ انفعالي عاطفي سليم هي ذات تأثير إيجابي بارز على مردود أولادها الدراسي، لأنها، ما دامت كذلك، فإنها تهيئ الأجواء المناسبة لنمو وإشباع حاجات هؤلاء الأطفال، كما تساعد على تنمية قدراتهم الذهنية والعقلية والانفعالية والاجتماعية. أما الأسر التي تفتقر إلى مثل هذا المناخ العاطفي السليم الذي يخيم عليها جو من النفور الدائم وعدم الاستقرار النفسي، فهي ذات تأثير سلبي ملحوظ على تحصيل أولادها الدراسي وتكيفهم الاجتماعي داخلها.

وما دمنا في صدد الحديث عن التأخر الدراسي نشير إلى أن من أسبابه زواج الأب من غير الأم، وزواج الأم من غير الأب، أو بقاء الأم مطلقة أو أرملة من غير زواج لتربية الأبناء.

وقد أدت نتائج التجارب التي أجراها بيرت (Burt) في بريطانيا إلى أن التأخر الدراسي يرجع إلى عوامل كثيرة نذكر منها: «الفقر المادي في المنزل، فقدان التوازن العاطفي، انحطاط المستوى الثقافي في المنزل»(12).

ونشير إلى الأطفال الذين ينشؤون في دور الأيتام والآثار النفسية السيئة التي يعانون منها، حيث تبدو عليهم تصرفات غير عادية قد تمتد طويلاً، وأكد كلمنت لوني في الدراسة النفسية التي أجراها على أطفال المعونة العامة أن مضايقاتهم العامة والمدرسية تنجم عن فقدان الأسرة ومن طراز الحياة الاجتماعية المفروضة عليهم.

كذلك فإن الدراسات حول الحرمان من الأم التي قام بها «بولبي» و«سيكلز داي» و«غولد فارد» بينت أن هذا الحرمان يسبب إعاقات مباشرة في نمو الشخصية وفي النمو العقلي. وقد وصف «سيكلز داي» ميتماً حيث الأطفال مصابون بتخلف عقلي، وقد تم نقلهم إلى مؤسسات خاصة حيث اهتمت بكل واحد منهم مراهقة متخلفة عقلياً أيضاً، وقد تبين بعد عدة شهور أن هؤلاء الأطفال توصلوا إلى مستوى طبيعي من النمو العقلي، بينما ازداد تخلف الذين بقوا في الميتم.

فالعاطفة إذاً هي المحرك لكل الأنشطة، والعمليات التي يقوم بها الفرد منذ ولادته، فملاحظة الحياة الانفعالية للطفل تعني دراسة جميع النشاطات العقلية كالذكاء واللغة وتكون الشخصية والنمو الحركي.

وسوف نشير باختصار إلى أثر العاطفة في تكون وتطور كل منها، ولكن قبل ذلك سنحاول تحديد بل تعريف مصطلح «القصور العاطفي» الذي ينتج عن بقاء الطفل في مركز مؤسساتي لا يوجد فيه بديل أبوي مناسب، بحيث أن العلاقة الناشئة بين الطفل والراشد تتسم بعدم الكفاية في التفاعلية، إذ إنه قصور كمي ونوعي لأن العلاقة تعاني من الثغرات.

أ - الذكاء Intelligence :

إن الاضطراب والقصور في العلاقة بين الأم والطفل تحدثان تخلفاً متشابهاً عند الأطفال، فبعضهم ينفصلون عن أمهاتهم لأسباب مختلفة دون أن يحصلوا على بديل يؤمن لهم الحنان والرعاية نفسها، يقومون بتصرفات غير عادية وتبدو عليهم

اضطرابات نفسية تزداد سوءً مع الزمن حتى لو حصلوا على قدر كاف من الغذاء. في البداية يبكون بشكل مستمر ويهربون من الكبار لأنهم فشلوا في علاقاتهم الأولى مع الأم، ويفقدون بعضاً من أوزانهم ويتوقف نموهم العقلي. فبدءاً من الشهر الثالث من الانفصال عن الأم يبدأ الطفل برفض أي اتصال ويظلون ممددين على صدورهم أثناء النهار ولا ينامون في الليل مسجلين بذلك تخلفاً جدياً في الحركة، بعد الشهر الثالث تظهر ملامح متصلبة وباردة على وجوههم تذكر بملامح الراشد في حالة الاكتئاب، ويستولي على الطفل نوع من البلادة، ويتراجع سلوكه في مختلف مظاهره، إذا أعيد الاتصال بالأم خلال هذه الفترة تزول المظاهر السلبية بسرعة بل ويلاحظ تسارعاً مذهلاً في النمو خلال فترات التلاقي. أما إذا استمر الانفصال عن الأم إلى فترة تزيد عن خمسة شهور عندها يحدث للطفل تلف أكثر سوءاً يصفه سبيتز (Spitz) بـ «داء المصحات» ويتميز بالنكوص وحتماً بالتوقف عن السير وعن الاهتمام بالنظافة وباللغة، ونسبة الوفيات بين هذا النوع من الأطفال مرتفعة بشكل غير عادي.

ب - النمو الحركي Sensorimotor Development :

إذا لم يكن الاضطراب في الحركة عائد إلى إصابات عضوية مباشرة أو غير مباشرة فيمكن إسناده إلى اضطرابات في العلاقة مع الأم في وقت تكون فيه هذه الوظائف في طور النمو والتشكل. باختصار، تقوم الحوافز الانفعالية بدور في نمو النشاط الحركي النفسي بحيث لا يمكن التخلي عن هذا الدور لصالح النضج العضوي.

جـ - اللغة Language :

بما أن اضطراب العلاقة مع الأهل ومع الأم خاصة يؤثر في نمو الذكاء بشكل عام، فإن اللغة وبشكل طبيعي لها قدر من هذا التخلف. ففي حالة غياب الرعاية الأمومية تظهر عند الطفل اضطرابات في مجال الاتصال مع الآخرين، فمن المؤكد والثابت أن حوافز لا واعية يحركها تعلق الطفل بأمه تساهم في تكوّن هذه الوظيفة وفي إحداث تطورات مذهلة تنجزها في بضعة أشهر.

د - تكوّن الشخصية:

هناك علاقة تجمع بين الحياة العاطفية للطفل وبين تكون شخصيته، فالصراع الذي يعيشه الطفل في الفترة الواقعة بين ٣ و٦ سنوات والمعروفة بـ «عقدة أوديب» من خلال التماهي بالأم والأب وتتحدد شخصية الطفل، إذ إن طبيعة الصراعات التي يعيشها مع والديه تحدد إلى حد كبير الانماط السلوكية المستقبلية للطفل.

ونشير إلى أن فرويد والمحللين النفسانيين يعتقدون أن الانفعالية هي المصدر الرئيسي للمعرفة، فالغريزة الجنسية المكبوتة والمرفوضة اجتماعياً تتحول من أهدافها الجنسية إلى مظاهر مقبولة اجتماعياً بل ولها قيمة، كالفضول العلمي ويبدو إطلاق الأحكام كانه بديل فكري عن الكبت.

منطلقة من النتاجات الخيالية التي جمعتها في أثناء التحليل النفسي للأطفال ترجع ميلاني كلاين (M. Klein) نشاط الإدراك الحسي إلى الأسابيع الأولى في حياة الطفل. في الواقع تعتبر كلاين أن وجود ظاهرة انتظار الثدي دلالة على أن هذا الأخير قد سبق للطفل «واندمج فيه» و«هلوس به» فهو قائم إذاً في فكره تحت عنوان تخيل باطني أو بطريقة أكثر تحديداً تحت عنوان «هوامات لا شعورية» Fantasism لقد خلقت التجربة الانفعالية المعاشة التطور العقلي.

ونشير أخيراً إلى قول بياجيه[13] أن الكائن البشري منذ ولادته في محيط اجتماعي يؤثر عليه كتأثير الوسط الطبيعي، إلا أن تأثير الوسط الاجتماعي يفوق تأثير الوسط الطبيعي، فالمجتمع يغير الفرد في شكله لأنه لا يلزمه فقط بالتعرف إلى الأحداث بل هو يقدم له منهجاً من الرموز معداً بشكل بحيث أن هذه الرموز تغير تفكيره وتفترض قيماً جديدة وتفرض عليه سلسلة غير محدودة من الالتزامات.

من البداهة إذاً أن الحياة الاجتماعية تغير الذكاء عبر الوسيط الثلاثي: اللغة (الرموز) محتوى العلاقات (قيم فكرية) والقواعد المفروضة على الفكر (قوانين جماعية منطقية أو ما قبل المنطقية).

ثالثاً: دراسة ميدانية حول الحرمان العاطفي وأثره على النمو المعرفي

انطلاقاً من المعطيات التي ذكرناها ومن الاختبارات والدراسات التي أجراها «بياجيه» ومن المقولة أنه لا يمكن عزل التفكير الطفولي عن عوامل التربية وكل المؤثرات التي تمارسها البيئة من خلال البالغ، فإننا سنتكلم عن دراسة قيمة أجريت في لبنان حيث عانت الأسر والأطفال من سبعة عشر عام من الحرب، فقد قامت نانسي الموسوي(14) باختبارات تتعلق بالأنوية (الإحيائية، الواقعية، الاصطناعية) وطبقت هذه الاختبارات على الأطفال اليتامى، بمعنى آخر هل أن حرمان الطفل من أحد والديه يؤثر على ذكائه، وتم إجراء مقارنة بين يتامى الأم ويتامى الأب.

وانطلقت الباحثة من أن فقدان أحد الوالدين يؤدي إلى الانخفاض في مستوى النمو الذهني وبالتالي إلى الزيادة في حدة الأنوية عند الطفل اليتيم عنه عند الطفل العادي. وأن فقدان الأم يؤثر بشكل أكثر منه في فقدان الأب.

من الملاحظ أن الأطفال يتامى الأب هم أكثر عدداً من أيتام الأم، فالحرب اللبنانية أودت بحياة أعداد كبيرة من الأفراد خصوصاً من الرجال، والحالة كذلك فإن الأمهات لا يستطعن تحمل الأعباء الحياتية فيلجأن بأكثريتهن إلى إيداع أطفالهن في المؤسسات عسى أن تخفف هذه الأخيرة العبء الملقى على عاتقهن في تربية أطفالهن.

وبتحليل الاختبارات ظهر جلياً التأخر الدراسي لدى الأطفال، والتأخر الدراسي بالنسبة لتلميذ ما إنه في عمر يفوق العمر المقرر للصف المنتسب إليه. أما الولد الذي يطابق عمره العمر المحدد لصفه، وفق السلم التعليمي المقرر، فهو في وضع تربوي سليم.

وقدلوحظ أن نصف أطفال العينة يعانون من تأخر دراسي يتراوح بين سنة دراسية وسنتين دراسيتين. وبالتحديد فإن ٢٤٪ من أفراد العينة فقط هم في الصف المقرر لعمرهم مقابل ٧٢٪ متأخرون دراسياً من سنة واحدة إلى ثلاث سنوات.

وقد سبق أن ذكرنا أن من أسباب التأخر الدراسي: فقدان التوازن العاطفي فالوضع الدراسي يتأثر بالحرمان العاطفي إلى حد بعيد، لذلك يتوقف بولبي عند أهمية دور الأم حيث أصبح من البيّن الآن أن الرعاية الأمومية في بداية الطفولة والطفولة المبكرة شيء أساسي للصحة العقلية ذلك اكتشاف يمكن مقارنة دوره بدور الفيتامينات للصحة الجسدية، كما أن جدواه عظيمة للوقاية من اعتلال الصحة العقلية.

كما اثبت بولبي في دراسته التي بعنوان «رعاية الطفل وتطور الحب» أن أطفال الملاجئ والمؤسسات الذين حرموا الأم لا يكونون في مستقبلهم في سوية الأطفال الذين تمتعوا بحنان الأم وعطفها.

ومن خلال الاختبارات التي قام بها «جان بياجيه» حول ماهية التفكير على الأطفال، ومن خلال تقسيم الإجابات توصل إلى صياغة ثلاث مراحل تبعاً للأعمار:

أما المراحل فهي كالتالي:

المرحلة الأولى: العمر المتوسط ست سنوات:

تتميز هذه المرحلة باستعمال كلمة «الفم» أي أن الأطفال يقولون بأنهم يفكرون بواسطة «الفم» والتفكير بالنسبة لهم مماثل «للصوت» ولا يحصل أي شيء داخل الجسم أو داخل الراس، وبشكل طبيعي هناك خلط بين الكلمات والاشياء، فالكلمة جزء من الشيء فلا توجد ذاتية في فعل التفكير.

المرحلة الثانية: العمر المتوسط ثماني سنوات:

تتميز هذه المرحلة بتدخل الراس، فالطفل قد تعلم أننا نفكر بواسطة «الراس» أو «الدماغ».

هناك استمرارية بين المرحلتين الثانية والثالثة، ولكن في هذه المرحلة ما يزال الطفل يعتبر التفكير وكانه صوت أو هواء في الراس أو الرقبة، وهو مادي حيث إنه من الدم أو إنه كرة ما. وما دمنا في صدد الحديث عن المرحلة الثانية، فلا بد من الإشارة إلى أن «بياجيه»(15) وجد أن هناك نمطان من الإجابات لدى الأطفال في هذه المرحلة: يستمر الطفل بالاعتقاد أن التفكير هو صوت أو هواء، أما النمط الثاني،

فيبحث الطفل عن فهم كلمات مثل «الدماغ» أو «الذكاء» إلخ، ويتصورها قنوات، ويعتبر التفكير بالنسبة لهم منفصلاً عن الأشياء نفسها، حيث الطفل بكل بساطة يمدد المرحلة الأولى فيشبه التفكير بالصوت أو أنه يفرق في استعمال مفردات معينة، وفي كلتا الحالتين التفكير غير منفصل عن الشيء الذي نفكر به، وأيضاً الكلمات عن الأشياء المسماة. هناك في الحقيقة صراع بين المعتقدات الداخلية للطفل وضغط التعليم الآتي من الراشد، وهذا السبب الأخير يؤدي إلى تطور من دون أن تقوم المرحلة الثانية بإيجاد حلول جديدة للطفل.

المرحلة الثالثة: ابتداءاً من 11 سنة:

يتوصل الطفل في هذه المرحلة إلى اعتبار التفكير غير مادي ومن الصعب وبشكل طبيعي الفصل بين هاتين المرحلتين الأخيرتين، وما يهم هو تمييز الأولى عن الثانية، أي معتقدات الطفل الخاصة من جهة وتدخل الراشدين من جهة ثانية.

وقد حدد «بياجيه» المعايير الثلاثة التي تسمح لنا بالحكم على الطفل أنه في المرحلة الثالثة، أي يستطيع تمييز التفكير عن الأشياء:

1 - أن يكون الطفل قادراً على تحديد مكان التفكير داخل الرأس، وأنه لا يمكن رؤيته، أي غير مادي ومختلف (مميز) عن الصوت أو الهواء.

2 - أن يكون قادراً على تميز الكلمات عن أسماء الأشياء نفسها.

3 - أن يكون قادراً على تحديد مكان الحلم داخل الرأس حتى لو فتحنا الرأس لا نستطيع رؤية الأحلام داخله.

وفي الاختبارات التي أجريت على الأطفال اللبنانيين ففي عمر الـ 11 سنة ظهر تأخر واضح وكبير، إن هذا التأخر يمكن ربطه بالتأخر الدراسي، وهذا الأخير يمكن اعتباره مؤشراً هاماً حول مسار التطور الذهني، وبما أن أطفال الـ 11 سنة يعانون من تأخر دراسي يصل إلى نسبة 91,62٪، فإنه يمكن اعتبار ذلك مؤشراً حول جميع الاختبارات، ويمكن هنا إرجاع هذا التأخر إلى عدم الإشباع العاطفي الذي يؤدي إلى تراكم الإحباطات والمشاكل النفسية والصراعات التي يتعرض لها الطفل في المؤسسة

الرعائية (الميتم)، فتظهر بشكل اضطرابات وتأخر في النمو المعرفي.

مفهوم الحياة: Concept of the Life:

بالإضافة إلى خاصية الوعي التي يعطيها الطفل للأشياء المحيطة به، فإنه وكنتيجة للذاتية والأنوية يعطي الأشياء صفة الحياة، فمن وجهة نظره الخاصة الأشياء «عايشة» مثلنا نحن ولو لم تكن كذلك «حية» لما كانت موجودة، فالميت لا نراه كما يقول الأطفال.

أو أنهم أحياناً يربطون مفهوم الحياة بالوظيفة، وهم يلجأون إلى طريقة في التحليل تثير الدهشة، فبالنسبة للطفل: الشمعة عندما تكون مولعة تكون عايشة وعندما تذوب تموت» و«الشجرة لو كانت عايشة كانت انتبهت على ثمارها وما كانت تسمح لأحد يقطفها» و«الجبل حي لأننا نراه».

إن طريقة التفكير تتبدل وتختلف تبعاً للأعمار فمع تقدم الطفل في العمر يرفض أو يتعلم أن يرفض إعطاء الحياة إلا للكائنات الحية.

أما المراحل كما وصفها «بياجيه» فهي كالتالي:

1 - المرحلة الأولى: حتى 6، 7 سنوات:

يعطي الطفل الحياة لجميع الأشياء التي تتمتع بنشاط ما مهما كان هذا النشاط أو العمل.

2 - المرحلة الثانية: من 6، 7 سنوات إلى 8، 9 سنوات:

تعرّف الحياة من خلال الحركة، حيث يتم ربط الحياة بحركة الأشياء.

3 - المرحلة الثالثة: 8، 9 سنوات إلى 11، 12 سنة:

يميز الطفل بين الحركة الداخلية للأشياء وبين الحركة المتلقاة من الخارج، إذ يعطي الطفل الحياة للنوع الأول من الحركة.

4 - المرحلة الرابعة: بدءاً من 11، 12 سنة:

الحياة معطاة للحيوان أو للحيوانات والنباتات والإنسان.

وقد أجريت اختبارات الإحيائية على أطفال العينة وبدأ التأخر العام بالظهور فإن 73٪ متأخرون و27٪ متسبون إلى المرحلة المقررة.

ونستطيع أن نقول إن الطفل في مرحلة أولية ونتيجة لخاصية الإحيائية التي تسيطر على تفكيره يعطي الحياة والشعور لجميع الأشياء الجامدة أو المتحركة، وكمرحلة لاحقة نتيجة لانحسار الأنوية يتحرر شيئاً فشيئًا ويبحث عن العلاقات الموضوعية بين الأشياء. ولكن نلاحظ لدى أطفال العينة أن الأنوية ما زالت تسيطر على تفكير الأطفال بحدة في عمر 11 سنة الذي يمثل عتبة الذكاء المجرد الذي يتميز بقيام العمليات الذهنية المجردة وانبناء مستوى جديد من التفكير، وكنتيجة لهذه الأنوية، فإن الإحيائية تسيطر على تفكير الأطفال حيث يعبر عنها بصورة إعطاء الحياة والشعور للأشياء الجامدة والمتحركة أو الاثنين معاً.

خلاصة:

والنتيجة هي أن الأسرة تقوم بدورين أساسيين هما الدور الاجتماعي والدور العاطفي الانفعالي، ودور الأسرة الاجتماعي يقوم على نقل ثقافة المجتمع إلى الطفل وتطبيعه اجتماعياً من خلال نقل الأفكار والمعتقدات والقيم السائدة في المجتمع لكي يتمكن من الحياة فيه.

وما يهمنا هو الدور الثاني، فالأسرة كجماعة تزود أفرادها بكثير من الإشباعات الأساسية، فإشباع حاجات الطفل إشباعاً كافياً في إطار الأمن والحب والعطف ييسر له اكتساب القدرة على التكيف، واتجاهات الطفل نحو الآخرين ترتبط إلى درجة كبيرة بالعلاقات داخل الأسرة، إن الغذاء الجسدي يساوي الغذاء الانفعالي الذي يحصل عليه الطفل في أسرته والجو النفسي الذي تصنعه الأسرة هو كالأوكسجين الذي يحتاجه الجسم كي يحيا، كذلك الطاقة النفسية المحدودة أو الناقصة في الجو الأسري لا توفر العناصر النفسية - الصحية.

تلعب الأسرة دوراً بارزاً في نمو الذات وتحافظ على قوتها، واضطراب الحياة الأسرية يؤدي إلى اضطراب النمو الانفعالي والعقلي، فالطفل الذي يعود من مدرسته وهو يحلم بأن تكون أمه في انتظاره، يصطدم كل صباح وكل يوم بالواقع الذي يعيشه، إنه يستيقظ يرى من يأمره بالنهوض سريعاً من سريره، والشيء نفسه

يتكرر ظهراً عند عودته، ويحتاج الطفل حين يعود من المدرسة أن يسرد ما حصل له لأمه أو لأبيه سارداً أحياناً بطولاته وانتقاداته وأحياناً فشله منتظراً في كل مرة الثناء عليه وتشجيعه ومساندته في حل مشكلاته.

يتعرض الطفل خلال مراحل نموه لكثير من الصراعات التي إذا ما تجاوزها بشكل صحيح حاز شخصية مستقرة، وإذا عجز عن ذلك ولم يساعده أحد تعرضت شخصيته للتفكك وأثرت بالتالي سلباً على جميع نواحي نموه. فماذا ننتظر من هؤلاء الأطفال الذي يعانون من عدم الإفساح لهم للتعبير، ولا يجدون من لديه الوقت والصبر لكي يساعدهم على تخطي مصاعبهم.

إن الأسرة تعني «الأمان» للطفل (الذي هو بداية الثقة بالنفس) و«الحب» وهي تمثل إحدى أقوى المؤسسات الاجتماعية التي تكسب الطفل العادات والمهارات والاتجاهات العقلية والاجتماعية والجسدية، ومما يدل على أهمية الأسرة الدراسات العديدة التي تشير إلى أن الكثير من حالات الإجرام والتشرد تعود إلى انهيار الأسرة، والإحصاءات تؤكد أن معظم الجانحين لم يعيشوا حياة أسرية سوية.

هذا بما يتعلق بمعطيات ومؤثرات البيئة الخارجية، أما فيما يخص الفعاليات الذهنية والبيولوجية نشير إلى أن التفكير الحدسي الذي يمتد حتى ٧ سنوات يمتاز بعدم التوازن بين الاستيعاب والتلاؤم، فتسيطر الأنوية على التفكير، فالعلاقات هي رهن الذات وليست تابعة لنظام موضوعي.

بعد هذه المرحلة تأتي مرحلة التفكير الحسي، فتظهر بوادر التوازن بين هاتين العمليتين (الاستيعاب والتلاؤم)، ولكن هذا التوازن ليس مستمراً لأن العلاقات والعمليات الذهنية لا تحدث بشكل متكامل، وأخيراً تأتي مرحلة الذكاء المجرد أو التفكير المجرد (11، 12 سنة) التي تم خلالها العمليات الذهنية المتكاملة فيتوصل الطفل إلى ربط الأشياء ببعضها عن طريق عمليات التصنيف والترتيب والتجميع... إلخ.

إن الخروج من الأنوية يعني حدوث التوازن بين عمليتي الاستيعاب والتلاؤم بحيث يتكيف الطفل مع الواقع عن طريق الإدراك الموضوعي للأشياء. فكما أن الاستيعاب بمفرده لا يؤدي إلى العمليات الذهنية المتبادلة، كذلك التلاؤم وحده لا

يؤدي إلى تلك العمليات، والتوازن بين الاثنين كما ذكرنا هو الذي يحرر الطفل من أنويته.

وكما سبق واشرنا فإن الأنوية تظهر في جميع فعاليات الطفل وهي قائمة في شخصيته بجميع أبعادها، في اللغة والمنطق وتصور العالم الخارجي وحتى شعوره الأخلاقي.

وتستمر الأنوية حتى الثامنة أو التاسعة حسب ملاحظات «بياجيه» فالطفل لا يستطيع إدراك العالم الخارجي والأشخاص بصورة موضوعية ولا يضع نفسه مكان الآخرين في علاقات عكسية متبادلة. وتبدأ الأنوية بالانحسار مع الزمن ولكن بفعل التأثير الخارجي، ويبقى الطفل في حالة عدم التوازن ما دام غير قادر على استيعاب المؤثرات الخارجية وملاءمتها مع بيئته الداخلية.

إن الصراعات النفسية والخلل في إشباع حاجات الطفل تجعله غير قادر على تمييز نفسه عن الآخرين ويبقى رهن الأنوية، إن الحرمان العاطفي الذي يعاني منه هؤلاء الأطفال بالإضافة إلى أوضاعهم الاجتماعية الناتجة عن فقدان حب أحد الوالدين، كل هذا يؤثر على النمو الذهني والمعرفي لدى الطفل ويجعله غير قادر على التحرر والخروج من أنويته.

المراجـــع

(1) مريم سليم: علم تكوين المعرفة، معهد الانماء العربي، بيروت 1980، ص 5 - 6.

(2) المرجع نفسه، ص 7 - 8.

(3) المرجع نفسه، ص 9.

(4) Dolle, J. M. : Conference piaget, privat, 1980 p. 46.

(5) Wads Warth, J. barry: Piaget's theory of cognitive and affective development, Longman, New york and London, 1989, p. 10.

(6) Trang thong; Ecyclopèdiè Lùniven de Lapsychologie, èdition lidis, Paris, 1981 p. p. 69 - 77.

(7) Piaget, Jean: Le Jugement er le Aisonment L'enfant, 1979, p. 166.

(8) مريم سليم: علم تكوين المعرفة، ص 61.

(9) خليل أبو رجيلي: الخلفية الاجتماعية للتلاميذ ونجاحهم المدرسي، المركز التربوي للبحوث والإنماء، بيروت 1972.

(10) هشام بزي: المنشأ الاجتماعي لتلاميذ مدينة صيدا، رسالة كفاءة، الجامعة اللبنانية، كلية التربية، بيروت، 1983، ص 92، 31.

(11) عامر عامر: الخلافات الزوجية والأبناء، رسالة كفاءة، الجامعة اللبنانية، كلية التربية، 1983، ص 72 - 69.

(12) عبدالباقي زيدان: الأسرة والطفولة، سلسلة الثقافة الاجتماعية الدينية للشباب، مكتبة النهضة المصرية، 1979، ص 24، ص 415.

(13) Jean, Piaget: La Psychologie de L'intelligence, 1979, p. 167.

(14) نانسي الموسوي: الحرمان العاطفي وأثره على النمو المعرفي، رسالة ماجستير، الجامعة اللبنانية، كلية التربية، بيروت، 1997.

(15) Jean Piaget: La Reprèsentation du monde L'enfant, Paris, Puf, 1947, p. p. 45-48.